المحاضرة الثالثة: القصص الشعبي وأنواعه

مثلما تتخبط الدراسات النقدية اليوم فيما يسمى فوضى المصطلح، إذ وإلى هذه اللحظة لم نلمس اتّفافا في دلالات بعضها، وعائد ذلك ربما للتشويه الذي طالها بسبب سوء الفهم الواضح لها، وهذه الوضعية قد امتدّت إلى الدراسات الشعبية في عالمنا العربي، فقد طالتها هذه الفوضى المصطلحية أو التشويش الموسوم بالسلبية، فيجد دارس السّرد الشعبي نفسه أمام ما يسمى أزمة المصطلح، بسبب ما يواجهه من اضطراب في توظيفه لدى فئة كبيرة من المتخصصين في الأدب الشعبي.

فالمادة القصصية الشعبية عند جمعها مثلا، تحتاج إلى التبويب ضمن فئات نوعية فنية وذلك مرورا بعملية حصر المفردات المصطلحية والمفاهيم التحديدية، كل ذلك من خلال عملية الفهم والاستيعاب للمكونات الأجناسية« لأن عملية جمع القصص الشعبي وتصنيفه تمثل إشكالا يضع الاستفهام أمام طرائق إنجاز هذه العملية، لاسيما فيما يتعلق بحصر الحدود الفارقة بين أنواع السرد الشعبي المختلفة، وكيفية ترتيب نصوصها إحصائيا وجماليا ودلاليا»، حيث هذه العملية لليوم تعيش التعثر.

والدارسون العرب يلجئون إلى نوع من الاستعمال العشوائي عند الحديث عن القصص الشعبي فنجدهم يلوذون إلى مصطلحات غير دقيقة مثل القصة الشعبية، الحكاية الشعبية، الخرافة الشعبية، الحكاية العجيبة، الحكاية الخارقة...الخ،« وقد تستعمل بعض من هذه المصطلحات استعمال المترادفات، كالقصص الشعبي والحكاية الشعبية والخرافة الشعبية، وقد تستعمل دون تمييز بين المصطلح والمفهوم الذي يشمله»، وسنتعرف على أهم أشكال القصص الشعبي.

أ_ الحكاية الشعبية:

نقف عند مفهوم الحكاية الشعبية في المعاجم العربية القديمة: فنجد الفراهيدي يقول في معجمه(العين)« حكيت فلانا وحاكيته: إذا فعلت مثله أو قوله سواء» ، فيما يرى ابن منظور في معجمه فيقول:« حكيت فلانا وحاكيته: فعلت مثل فعله، أو مثل قوله سواء، أو لم أجاوزه...وحكيت الحديث حكاية يقال حكاه، حاكاه، وأكثر ما يستعمل في القبيح، والمحاكاة المشابهة، تقول فلان يحاكي الشمس حسنا ويحاكيها بمعنى يشبهها في الحسن والجمال، وحكيت عنه الكلام وحكوت وأحكيت

العقدة أي شددتها»، كما نجد ابن فارس يقول« حكيت الشيء أحكيه، وذلك أن تفعل مثل فعل الأول» ، والملاحظ أن مادة حكى أو حاكى في المعاجم العربية لا تخرج عن مفهومي الاقتداء والمشابهة.

أما فيما يخص لفظ القص أو القصص فابن منظور يقول« القص: القطع أو تتبع الأثر...والقصة: الأمر والحديث، واقتصصت الحديث: رويته على وجهه، وقصّ عليه الخبر قصصا، يقال قصصت الرؤيا على فلان إذا أخبرته بها، والقصّ: البيان، والقصص(بالفتح) الاسم، والقاص: الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبّع معانيها وألفاظها»، والقص أو القصص في مفهومه اللغوي يقترب جدا من المفهوم الاصطلاحي للحكي.

أما اصطلاحا لقد تناول عديد الدارسين المتخصصين هذا المفهوم بالشرح والتعريف، فهي عند الباحثة " نبيلة إبراهيم"« قصة ينسجها الخيال الشعبي حول جدث مهم، وأن هذه القصة يستمتع الشعب بروايتها والاستماع إليها، إلى درجة أنه يستقبلها جيلا بعد جيل عن طريق الرواية الشفهية» ، والدارسة في تعريفها تركز على بعض ما تتصف به الحكاية الخرافية مثل الخيال والرواية الشفهية والانتقال والتسلية، في حين أهملت بعض الجوانب كالجانب السحري العجائبي.

فيما يرى الباحث" طلال حرب" أن الحكاية الشعبية« تركز على حدث أو على بطل، وقد يكون هذا الحدث اجتماعيا أو سياسيا أو نفسيا، وقد يكون البطل طفلا صغيرا أو فتى يافعا أو بطلا شعبيا قوميا تاريخيا، ولكن مهما كان الحدث، ومهما كان عمر البطل فإن الشيء الأساسي، الذي نلاحظه هو أن الحكاية تصور صراعا كبيرا بين الخير والشر»، لقد ركز الباحث على الموضوع الشمولي للحكاية الشعبية والذي هو صراع الخير والشر مهما كانت طبيعة الحدث فيها، وبالرغم من ذلك نلمس قصورا، ذلك أنه ألغى جوانب أخرى مهمة.

ومن الدارسين الجزائريين الذين حاولوا أن يضبطوا لها مفهوما شاملا أمحمد عزوي الذي اعتبر القصة الشعبية مرادفا للحكاية الشعبية بقوله:« القصة الشعبية ذلك النص المروي مشافهة، والمتنقل عبر زمن مجهول من مكان مجهول، المنطلق من حادثة، قد تكون حقيقية، ثم تشعبت روايتها مع مرور الوقت، فتحورت وتشكلت إلى أن فقدت صفتها الأولى، نظرا للتداول المختلف ونظرا للظروف البيئية والاجتماعية التي تؤثر فيها وقت روايتها»، فالحكاية الشعبية وفقا لرأيه لها منطلق واقعي وحقيقي، بمعنى أنها ذات صلة بالواقع، وتأكيدا منه لهذا المبدأ يضيف أن القصة الشعبية هي« ذلك النص الذي ابتدعه إنسان رهيف الحس، يعبر به عن المعاناة التي يعانيها الشعب تحت ظروف خاصة، فأوجد هذا القصص ليخفف عنه تلك الآلام، وليعوضه بعالم الخيال حتى ينسيه ولو جزءا

من الزمن الذي يعيشه، أو ليبعث فيه آمالا فقدها، أو ليحثه على اتخاذ موقف معين تجاه موقف آخر معاكس»، فهذه الحكايات الشعبية وإن جنحت للخيال، فهي تصوير لواقع الشعب.

كما يخصص لها الدكتور عبد الحميد بورايو مبحثا كاملا في مؤلفه" الأدب الشعبي الجزائري" فيشرح صلتها بالواقع قائلا «تتخذ الحكاية الشعبية مادتها من عناصر مستمدة من الواقع المعاش، الذي يحياه الناس الذين يتداولونها، فتصور موقفا من مواقف هذا الواقع، من خلالها نتبين طموح الإنسان إلى مراقبة واقعه وإخضاعه للملاحظة، ومحاولة توجيهه وإيجاد حلول للمعضلات التي يطرحها» ، فكل ما سقناه من تعاريف حاول أن يلمس الحكاية الشعبية في ميزاتها المتعددة، ويشملها بدقة ليظل التركيز على عنصر ربط الحكايات الشعبية بالواقع أمر مهم، لأن ذلك ما يجعلنا نفرق بينها وبين أشكال سردية أخرى.

***خصائصها:**

يمكن أن نجمل بعض الخصائص التي ذكرها الدكتور بورايو وسنتوسع فيها لاحقا بإجراء مقارنة بينها وبين الحكاية الخرافية، وتلخص في هذه النقاط:

_ يحرص راوي الحكاية الشعبية على تحديد الإطار الزمني والمكاني الذي جرت فيه أحداث الحكاية.

_ تصوراتها مستمدة من واقع المتلقين.

_ تركز عادة على الحدث في حدّ ذاته، ولا تمثل الشخصية بالنسبة لها إلا أداة يتحقق من خلالها الحدث.

_ يضمر فيها الفعل البطولي، وتبتعد عن إثارة الانفعالات، فقد تتعرض للمشاعر لكن ليس من أجل إثارة مشاعر موازية عند المتلقي، مثلما هو الحال في قصص البطولة، بل من أجل تأملها تأملا هادئا والكشف عن حقيقتها.

_ في تناولها للوضع الاجتماعي والسياسي تنحو منحى نقديا، فتوجه انتقادا لاذعا لمختلف أشكال انحراف السلوك الاجتماعي.

_ الحاجة إلى المعرفة من بين الاحتياجات التي اعتنت بها الحكاية الشعبية وحاولت تصويرها وتلبيتها بمختلف الوسائل التخييلية (السحر والكائنات الماورائية).

_ الاتصال فيها بالعوالم العجيبة ليس متاحا لجميع الناس، وعند حدوثه فهو يمثل للشخوص البشرية تجربة ذات لون خاص، يتحرر فيها الإنسان من قيود الزمان والمكان لفترة معينة، لكنه يعود في النهاية لعالمه، فتبدو جلية غرابة التجربة، واندراجها فيما هو عجيب يدعو للدهشة والتأمل وأخذ العبرة.

ب_ الحكاية الخرافية:

لما كان الإنسان يعيش في عالم محاط بالألغاز المحيرة والمدهشة، وكان صعبا عليه فهم مبهماتها، حينها أطلق العنان لمخيلته الواسعة والخصبة، التي ابتكرت الأساطير والحكايات الخرافية فكانت عبارة على تفسيرات لما يدور داخله من تساؤلات، فماذا يعني هذا الشكل السردي الشعبي؟ وما خصائصه؟.

1_ المفهوم:

لقد عرفنا سابقا معنى الحكي والحكاية، لذا سنتعرف على معنى الخرافة لغة، يقول ابن منظور في معجمه" لسان العرب"« الخرافة: الحديث المستملح من الكذب، وقالوا حديث خرافة، ذكر ابن الكلبي في قولهم حديث خرافة، أن خرافة من بني عذرة أو من جهينة، اختطفته الجن ثم رجع إلى قومه فكان يحدث بأحاديث مما رأى، يعجب منها الناس فكذبوه فجرى على ألسن الناس» ، فالمعنى المستخلص من هذا التعريف اللغوي أن الخرف هو الهذيان والكلام الذي لا يصدّق.

أما اصطلاحا لقد أطلقت أسماء عدة على هذا الشكل القصصي، كالحكاية الخرافية، والحكاية الخارقة وحكاية الخوارق والحكاية العجيبة، الحكاية السحرية...الخ، وقد فضل الدارس" مصطفى يعلى" مصطلح العجيبة، والسبب« أن هذا النوع من القصص الشعبي مبني أساسا على ما هو عجيب ومدهش، لما يمتلئ به من بطولات فوق طبيعية مثيرة، وأحداث خارقة، وشخصيات غير مرئية، وفضاءات مؤسطرة غريبة، وأزمنة لا منطقية، وما إلى ذلك مما يثير العجب في النفس، فلا قوام لهذا النوع دون العوالم العجائبية الشيقة، بل لو أنه جرد من هذا العنصر لتحول إلى لغة عادية لا طائل من ورائها ولا هدف لها، ولأصبحت في أحسن الأحوال سردا شعبيا آخر هو الحكاية الشعبية، المهتمة بالأحداث المنطقية والمواقف الواقعية» ، فالواضح أن أهم ميزات الحكاية الخرافية هي هذه العجائبية.

وهي من أكثر الأشكال انتشارا عند شعوب العالم فهي« تمثل شكلا قصصيا ذا طابع عالمي، يطلق عليه باللغة الفرنسية مصطلحي contemerveilleux» ، ولقد حاول الباحث بورايو أن يعطيها مفهوما شاملا فقال هي:« خطاب قصصي يكشف في مستهله عن ضرر ما، أو إساءة لحقت بأحد الأفراد، أو عن رغبة في الحصول على شيء ما أو المساعدة السحرية التي تسمح له بالحصول على الشيء المرغوب، وتأتي بعد ذلك مرحلة العودة، حيث يظهر الصراع الثنائي بين البطل وخصومه الذين يتابعونه، ويضعون في طريقه العقبات، ويتمكن من اجتيازها، ويؤدي المهمات التي تعرض عليه، وينجح في جميع الاختبارات، ويصل إلى منزله، ويتم التعرف عليه، فيتجلى في أحسن صورة، وفي الأخير يكافأ ويتزوج ويعتلي العرش»، والظاهر أن الباحث قد وضع هذا التعريف انطلاقا من التطور السردي للخرافة، ووفقا للوظائف التي وضعها فلاديمير بروب في الحكاية الخرافية.

2_ خصائص الحكاية الخرافية:

_ تجسد تجارب الإنسان مع عالمه الداخلي، ولأنها تستجيب لميل الإنسان الفطري لأن يصور لنفسه عالما أجمل من عالمه الواقعي.

_ شخصياتها تمتاز بالسطحية، فالشخوص تبدو بلا أجساد وكأنهم يعيشون دون واقع داخلي وبلا عالم يحيط بهم، فالانفعال ليدها بغاية الاستمرار لا بهدف نقل حالة نفسية.

_ الحكاية الخرافية تبتعد عن الزمان والمكان، فتصور الشخص الكبير والأصغر والأميرة التي تظل شابه ولو نامت مئة عام، فهم يهرمون ويعيشون الماضي والمستقبل، وهو الضمان الوحيد لعجائبية الأحداث فيها.

_ النزعة إلى التجريد والأسلوب الانعزالي فالبطل منعزل عن الزمان والمكان والأهل، والأحداث الجزئية منعزلة، فزوجة الأب تطرح أمام ابنة زوجها أكواما من الحبوب المختلطة لتفرزها في فترة وجيزة، تتدخل الطيور الخيّرة للمساعدة فتحل الأمر في ميعاده، فتطلب زوجة الأب الكرة دون أن تبحث عن تفسير للحدث وكأنه منعزل عمّا قبله.

_ التسامي فالحكاية الخرافية تسمو بشخوصها وتفقدها جوهرها الداخلي، فتتحول إلى أشكال شفافة خفيفة الوزن والحركة، وتفرغهم من عواطف الغضب والثورة والحقد والحسد، وتدخلهم في غمار الأحداث دون إحساس بالتعب والكآبة، فتقف بذلك في عالم مليء بالسحر والأمل.

_ الحكاية الخرافية توظف الشخوص السبعة(الأميرة، الشخصية الشريرة، الشخصية المانحة، الشخصية المبعدة للبطل، البطل المزيف، البطل الحقيقي، الشخصية المساعدة). وكل الشخصيات تلعب دورا في حياة البطل لتحقيق أهدافه.

_ الرموز فالحكاية الخرافية تزخر بها من ذلك المسخ، فالمرأة الجميلة في وسعها ان تحول الرجل الممسوخ في صورة حيوان إلى رجل جميل تتزوج به، بالإضافة إلى رمز الشيء المحرم الذي لا يحق للبطل الاقتراب منهن ومع ذلك نجده شغوفا لاختراقه، ما يقود الأحداث إلى التعقد.

3_ الفروق بين الحكايتين الخرافية والشعبية:

الحكاية الخرافية	الحكاية الشعبية
_ العرض فيها أقل علمية وموضوعية.	_ تعيد ذكر المواقف التي حدثت أو يمكن أن تحدث لذا فالعرض فيها أكثر علمية وموضوعية
_ بنيتها مركبة	_ بنيتها بسيطة
_ لا تؤخذ بهذا المأخذ	_ تؤخذ غالبا مأخذ الحقيقة
_ يقع الشخص (البطل) في بؤرة الحكاية العجيبة	_ تقع التجربة في بؤرة الحكاية الشعبية
_ مصير الأبطال هو الذي يفرض عليها الامتداد بالموضوع.	_ التجربة المعالجة هي التي تمتد بتسلسل الحكاية
_ تنزع إلى المثالية موضوعا والتجريد عرضا.	_ حسية تصف الطبيعة وتصور العوالم الأخرى

	في دقة وتفصيل.
_ توظيف العناصر السحرية من أجل إبراز طبيعة البطل إلى النهاية السعيدة.	_ تعيش جو واقعي ورغم ذلك تستعين بصنوف السحر وأشكال من العالم المجهول لكن بطريقة مختلفة، فالبطل لا ينغمس كل الانغماس في العالم العجائبي المجهول، إنما ينظر إليه بوصفه قوة منعزلة عن حياته الواقعية وسرعان ما يرتد إلى عالمه خائبا فتوظيف العناصر السحرية باعتبارها رموزا تصل بالبطل إلى الحقيقة المجهولة.
_الحكاية العجيبة ذات بعد واحد فالعالم المجهول يقع في مستوى العالم المعلوم.	_ البطل على وعي تام بالعوالم المجهولة لذلك تثير في نفسه الرهبة والفزع لذا فالحكاية الشعبية ذات بعدين.
_ تنمو الشخصية من الخارج تحركها قوى خارجية بالمساعدة.	_ الشخصية تنمو من الداخل، فإحساس البطل بالخطر يدفعه لاستكشافه من داخل نفسه.
_ حركة البطل تتم بحرية مطلقة فهو خفيف الحركة.	_ حركة البطل أسيرة القيود التي تكبل الإنسان وتحد من حركته وشخوصها يرتبطون بالزمان والمكان يتحركون من خلالها في واقع لا يستطيعون الفكاك منه.
_ تنتهي بالقضاء على الشر.	_ تنتهي بتأكيد وجود الشر في حياة الإنسان.

يمكن أن نضيف لهذه الفروق ميزتين وهما الافتتاح والاختتام للخرافة، بحيث يكون «الانفصال عن الواقع والاتصال بعالم الخيال في مستهل الرواية، ثم الخطوة المعاكسة عند اختتامها» ، ويضع الدارس" بورايو في الافتتاح مثل هذه العبارات «كان يا مكان في قديم الزمان، بالحبق والسّوسان، في حجر النبي عليه الصلاة والسلام» ، وعند الاختتام ووجوب العودة للواقع يذكر قول الراوي« جتنا بريّة من فاس وقراها بن سعادة، راها العين تحب النعاس والرّاس يحوّس على لوسادة أو قوله: خرّافتنا دخلت الغابة، والعام الجايْ تْجينا صابة» ، والحكاية الشعبية ليس لزاما أن تكون لها افتتاحية أو عبارة اختتام مثل ما تتميز به الحكاية الخرافية.

ج_ الخرافة الرمزية(الفابولا) fable:

هي سرد مكثف يضطلع بمهمة تعليمية ومضامين أخلاقية على شدة قصرها ومحدودية أدواتها، وتختلف الفابولا(الخرافة الرمزية) عن حكايات الحيوان التعليلية أن الأولى لا تقتصر على تشخيص الحيوان إنما تتجاوزه إلى الجماد والنبات والظواهر الطبيعية والشخصيات المعنوية، بينما التعليلية

تهدف إلى الوصول إلى مغزى تعليمي من طريق تشخيص الحيوانن كان تفسر ظواهر طبيعية مرتبطة بالحيوانات.

بناء الفابولا:

على مستوى البناء تتكون الخرافة الرمزية من بناء بسيط ومحدود يتوزع على ما يلي:

أ_ **العرض القصصي للحدث**: وهو سرد الحكاية في تفاصيلها المجسدة للهدف الأخلاقي.

ب_ المحصول الأخلاقي: ويقتصر على تقرير الهدف الاخلاقي بصورة مركزة يتجسد غالبا في مثل سائر أو قول مأثور يقرر الحوصلة الأخلاقية أو التعليمية من القصة، وقد لا يشير إليها صراحة، وتترك لإدراك السامع.

خصائص الفابولا:

_ بساطة الحبكة الفنية وتركيزها على هدف واحد مجسد في شخصيتين أو ثلاث شخصيات.

_ البعد عن التقسيم الثلاثي المعروف في الحكاية العجيبة والشعبية وهو التمهيد والعقدة والخاتمة، ولا تبدأ ولا تختم بعبارات طقوسية معينة مثل (حاجيتك ونا جيتك).

_ شخصياتها من الإنسان أو الحيوان أو الجماد والنبات أو شخصيات معنوية أو غيبية كالشيطان،

_ الفابولا لا تسمي أبطالها مكتفية بنوعها (رجل _امرأة) أو صفتها العمرية(شيخ_ طفل شاب) أو العلائقية(أب _ أم_ جار_ صديق) أو الطبقية(ملك_ فقير) ،أو المهنية(فلاح_ تاجر_ مزارع...الخ). لان المهم ليس الشخصية وإنما ما تقوم به من فعل وما تحمله من دلالات.

_ الفضاء المكاني تستعين الفابولا بأماكن متنوعة متقابلة(أعلى_ أسفل_ خارج_ داخل....الخ).

نموذج:

ذات شتاء عثر فلاح على أفعى متجمدة فاقدة الحس من شدة البرد، فالتقطها شفقة عليها وأودعها صدره، ولم تكد الافعى تنتعش من الدفء حتى انقلبت على منقذها فعضته عضة قاتلة، وبينما كان الرجل يلفظ أنفاسه الاخيرة، كان يصيح هذا جزائي فقد اخذتني الرأفة بهذا المخلوق الشرير.

المفارقة تتمثل في إشفاق الفلاح على الأفعى(اودعها صدره) وعض الافعى للفلاح والقضاء عليه بعد أن انتعشت بسبب الدفء، فكان الموقف الطبيعي ندم الفلاح على وضع المعروف في غير موضعه.

د_ الحكاية المرحة:

هي الحكايات التي تقوم على المفارقات المرحة الممزوجة بالنقد اللاذع، الفرق بينها وبين النادرة أن هذه الأخيرة تتركز على شخصيات نوعية ساخرة أو مسخور منها كالبخلاء والطفيليين والحمقى والمغفلين، أو شخصية نموذجية يعلق عليها كل أنواع السخرية من أي لوك غير سوي كشخصية جحا الما عناصر التشابه بينهما تتلخص في البناء الفني والغاية، فالعناصر الفنية وهي الشخصيات القليلة(شخصيتان غالبا) والحدث الواحد والسخرية من بعض النماذج البشرية.

خصائصها:

_ غير خطابية وغير مباشرة وغير تقريرية إنما هي شفافة من خلال قدرتها على الإضحاك والسخرية اللاذعة من خلال تجسيد الموقف المضحك.

_ هي حكاية قصيرة بدون تفصيلات تشويقية تدور غالبا حول موضوعات مرحة من الحياة اليومية مع محدودية الحدث وبعده عن التعقيد كما الشخصيات إنسانية وقليلة، وتغلب عليها المفارقات المضحكة الناتجة عن الحيلة أو الغباء أو البلادة.

_ شخوص الحكاية المرحة من البشر وينقسمون عادة إلى نوعين: شخصية إيجابية(الاذكياء والعقلاء والعلماء...الخ) وشخصية سلبية(الأغبياء، الجهلاء، اللصوص، الحمقى والمجانين)..